الإحكام
في أصول الأحكام

تأليف

الإمام العلامة علي بن محمد الآمدي

علّق عليه

العلّامة الشّيخ عبد الرّزاق عفيفي

الجزء الأول

المكتب الاسلامي

طُبِع
بإذن فضيلة الشيخ المحقق
و
مؤسسة النور

الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ. الرياض
الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ. بيروت

المكتب الإسلامي
دمشق : ص ب ٨٠٠ - هاتف : ١١١٦٣٧ - برقياً : إسلامي
بيروت : ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف: ٤٥٠٦٣٨ - برقياً : إسلامياً

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة - موجزة

عن تاريخ أصول الفقه

احمدك اللهم حمداً يليق بجلالك ، واشكرك شكراً يوافي نعمك؛ ويكافيء مزيدك سبحانك لانحصي ثناءاً عليك انت كما اثنيت على نفسك. واشهد ان لااله الا انت وحدك لاشريك لك شهادة تكفر بها عنا السيئات ، وترفعنا بها عندك اعلى الدرجات وأشهد ان محمداً عبدك المرتضى، ونبيك المجتبي، ورسولك المصطفى، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدي بهديه الي يوم الدين .

وبعد . فأصول الفقه من العلوم التي عم نفعها، وعظمت فائدتها، فقد استطاع به المجتهدون فطرة واستعداداً ، اودراسة واكتسابا ان يستثمروا نصوص الشريعة ، وان يستنبطوا بها الاحكام من ادلتها التفصيليه على اكمل وجه وأتقنه ، وأوضح طريق وابينه. ووقف من عني بدراسته من العلماء المقلدين على مآخذ الائمة المجتهدين ومداركهم ، وعرفوا طريقهم في اجتهادهم ومذاهبهم في استنبا طهم ، فطبقوا قواعدهم على ماجد من أقضية، واستخرجوا على اصولهم أحكاماً في كثير من المسائل نسبوها اليهم تخريجا حيث لم يثبت عنهم فيها حكم نصاً .

وقد يبلغ من يعني بعلم الاصول ويأخذ نفسه بدراسة قواعده استدلالا عليها وتطبيقاًلها على نهج من تقدمه من الائمة ان يكون مجتهد امطلقـــاً يعتمد في بحثه على اصول الشريعة ، ويرجع الى ادلتها ويستنبط منها الاحكام . وربما كان هذا ايسر له واعم نفعا ، واسلم عاقبة من اجتهاده في المسائل على مقتضي اصول امام معين واستخراج الفروع على اصوله .

وقد كانت العربية سليقة للصحابة رضي الله عنهم وبلغتهم نزل القرآن، وبها بينه النبي ﷺ، فكانو يعرفون مقصد الكلام ومغزاه من لحن القول وفحواه، وقد شهدوا عهد الوحي والتنزيل؛ ولزموا النبي ﷺ في سفره واقامته، وكانو مع ذلك على جانب عظيم من الفطنة والذكاء وسلامة الذوق ونور البصيرة والحرص على التشريع علماً وعملا، فوقفوا على أسرار الشريعة ومقاصدها؛ ولم يجدوا في انفسهم حاجة الى دراسة قواعد يستعينون بها في استثمار نصوص الشريعة ولاضرورة تلجئهم الى تدوين اصول يرجع اليها في استنباط الاحكام من الادلة،

وقد سار التابعون على مدرجتهم، وسلكوا سبيلهم فاستغنوا غناهم لقرب العهد بالوحي، وقوة الصلة بالصحابة، وكثرة الاخذ عنهم والمخالطة لهم، وغلبة السلامة على اللغة العربية من الكلمات الدخيلة.

ولما بعد العهد بزمن النبوة، وكثر اختلاط العرب بغيرهم من الفرس والروم، وترجم كثير من الكتب اليونانية وغيرها الى اللغة العربية أيام الدولة العباسية استعجم كثير من العرب في لغتهم، واساليب كلامهم، وتأثرت اذواقهم، واختلفت مناهجهم وتغيرت اغراضهم في نثرهم وشعرهم. واللغة العربية لغة الكتاب والسنة اسلوبا ومنهجاً، ومقصداً ومغزى فهي الطريق الى فهمهما والعمدة في ادراك اسرارهما وعليها يتوقف معرفة كثير من وجوه اعجاز القرآن، فلذاعني العلماء بحفظها في جوانبها المختلفة بشتى الوسائل وتوسعوا في تدوين قواعدها، وبدؤا يضعون قواعد اصول الفقه. وساعدهم على ذلك ماوقفوا عليه في الكتب المترجمة من صناعة التأليف ونظام التقعيد وحسن التبويب والترتيب،

وزدا تدوين اصول الفقه سهولة أن قواعده عند علماء الحديث في الحجاز وعلماء الرأي بالعراق بدات تتمايز في نقاش المجتهدين من الفريقين، وتظهر في حجاجهم واستدلالهم؛ وان لم تكن مدونة لديهم.

وكان اول من عني بتدوين اصول الفقه فيما اشتهر بين العلماء ابو عبد الله محمد ابن ادريس الشافعي فأملى كتابه المعروف بالرسالة؛ وكتبه عنه الربيع بن سليمان المرادي، وقد جمع في املاء الرسالة بين امرين اجمالا.

الاول : تحرير القواعد الاصوليه وإقامة الادلة عليها من الكتاب والسنة، وإيضاح منهجه في الاستدلال وتأييده بالشواهد من اللغة العربية .

الثاني : الاكثار من الامثلة لزيادة الايضاح ، والتطبيق لكثير من الأدلة على قضايا في اصول الشريعة وفروعها ، مع نقاش للمخالفين تزيده جزالة العبارة قوة، وتكسبه جمالا، فكان كتابه قاعدة محكمة بنى عليها من جاء بعده، ومنهجه فيه طريقا واضحا سلكه من الف في هذا العلم وتوسع فيه .

وقد تبعه في الامرين ابو محمد علي بن حزم في كتابه «الاحكام في اصول الاحكام» بل كان اكثر منه سرداً للأدلة النقلية مع نقدها ، وايراداً للفروع الفقهيه مع ذكر مذاهب العلماء فيها وما احتجوا به عليها ، ثم يوسع ذلك نقداً ونقاشا ويرجح ما يراه صواباً. غير ان ابا محمد وان كان غير مدافع في سعة علمه واطلاعه على النصوص . وتمييز صحيحها من سقيمها ، والمعرفة بمذاهب العلماء وادلتها ، وايراد ذلك في اسلوب رائع ، وعبارات سهلة واضحة ، لم يبلغ مبلغ الشافعي. فقد كان الشافعي اخبر منه بالنقل ، واعرف بطرقه ، وأقدر على نقده، واعدل في حكمه ؛ وادرى بمعاني النصوص ومغزاها، وارعى لمقاصد الشريعة واسرارها، وبناء الاحكام عليها مع جزالة في العبارة تذكر بالعربية في عهدها الاول ؛ ومع حسن ادب في النقد ، وعفة لسان في نقاش الخصوم والرد على المخالفين .

ولو سلك المؤلفون في الاصول بعد الشافعي طريقته في الامرين تقعيداً واستدلالا وتطبيقا وايضاحا بكثرة الأمثلة وتركوا الخيال و كثرة الجدل والفروض واطرحوا العصبية في النقاش والحجاج . ولم يزيدوا الا ما تقتضي طبيعة النماء في العلوم اضافته من مسائل وتفاصيل لما اصل في الأبواب ، والا ما تدعوا اليه الحاجة من التطبيق والتمثيل من واقع الحياة للايضاح ، كما فعل ابن حزم لسهل هذا العلم على طالبيه ولانتهى بمن اشتغل به الى صفوف المجتهدين من قريب .

ولكنهم اختلفوا فاخذ كل جانبا ،

فمنهم من عنى بالقواعد واثباتها بالأدلة عقلا و نقلا مع بسط القول ووضوح العبارة في سوق الأدلة ونقاشها وضوحا لا يعوز القاريء الى شرح او بيان .

غير انهم قصروا في جانب الأمثلة والتطبيق فلا يوجد في كتبهم من ذلك الا النزر اليسير ، ثم هو تقليدي يرثه الآخر عن الاول فلا تنويع ولا تجد يد ولا تطبيق لما جد من القضايا في العهود المختلفة واكثروا مع ذلك من الجدل والخيال والفروض والوان الاحتمال، وذكر مسائل لا تدعو لها الحاجة ، وقد عرفت هذه الطريقة بطريقة علماء الكلام ؛ وممن نسج على منوالها في تأليفه ابو الحسين محمد بن على البصري المعتزلي الشافعي في كتابه المعتمد؛ وابو المعالي عبدالملك بن عبدالله الجويني الاشعري الشافعي الشهير بأمام الحرمين في كتابه البرهان ، وابو حامد محمد بن محمد الغزالي الاشعري الشافعي في كتابه المستصفى، فهؤلاء ومن سلك سبيلهم لم يراعوا في تأليفهم فروع مذهب معين انما همهم تفصيل القواعد الأصولية وايضاحها بالأمثلة ، وذكر خلاف العلماء فيها والاستدلال عليها ومناقشة الادلة وترجيح ما يرونه ،

وقد جمع ما في هذه الكتب فخر الدين محمد بن عمر الرازي الاشعري الشافعي في كتابه المحصول، وابو الحسن علي بن ابي علي محمد بن سالم السيف الآمدي الأشعري الشافعي في كتابه (الإحكام) مع بسط في القول ووضوح في العبارة .

ومنهم من اكثر من المسائل الفقهية ، وعنى فيها بالانتصار لمذهب معين، وقرر الى جانبها قواعد اصولية على ضوء ما حكم به امامه في هذه المسائل، فكان صنيعه في تاليفه اشبه بصنيع مجتهد المذهب الذي يعنى بمعرفة اصول امامه من الفروع التي نص على حكمها؛ لا صنيع المجتهد المطلق، او العالم الاصولي المنصف الذي يعنى ببحث القواعد الاصولية على ضوء اصول الشريعة والاستدلال عليها بالكتاب والسنة ؛ دون ميل الى نصرة مذهب معين في الفروع الفقهية .

وتسمى هذه الطريقة طريقة الحنفية لشيوعها فيهم ، وممن نهج سبيلها ابو زيد عبيدالله بن عمر الدبوسي، ومحمد بن احمد السرخسي وعلي بن محمد البزدوي .

ولو سلك هؤلاء طريق الاستقراء فاكثروا المسائل الفقهية من ابواب شتى على ان يجمعها وحدة اصولية كما فعل ذلك الشاطبي احيانا في كتاب الموافقات ، وقصدوا بذلك الشرح والايضاح ؛ والارشاد الى ما بينها من معنى جامع يقتضي اشتراكها

في الحكم دون تقيد بمذهب معين ليخلصوا الى القاعدة الاصولية، واتبعوا ذلك مايؤيد الاستقراء من ادلة العقل والنقل لكان طريقاً طبيعياً تألفه الفطر السليمة وتعتمده عقول الباحثين المنصفين ولأكسبوا من قرأ في كتبهم استقلالا في الحكم وفتحوا امامهم باب البحث والتنقيب ، ويسروا لهم تطبيق القواعد الأصولية على ماجد ويجد من القضايا في مختلف العصور.

واكتفى من جاء بعد هؤلاء باختصار كتب من سبقهم وتلخيصها غالبا على احدى الطريقتين كالبيضاوي في المنهاج، وربما جمع بعضهم في مختصره بين الطريقتين كابن الهمام في تحريره ،وقد بلغ كثير من المختصرات حد الألغاز فاضطر من يقرؤها ان يرجع الى الاصول التي منها اختصرت ليتمكن من فهمها اوشرحها .

وخير لمن يريد فهم علم الاصول على وجهه ويرسخ فيه ان يرجع في قراءته الى كتب الاوائل فانها اقعد، وعبارتها ادق واوضح، وتحريرهم لمحل النزاع وحكايتهم للخلاف اوفق، لانهم بذلك اعرف؛ ونقاشهم للادلة جار على اصول النقد، وقواعد الجدل ،والمناظرة عند العلماء .

هذا ولما عزم الاخ الكريم الشيخ (علي بن حمد الصالحي) على طبع كتاب (الاحكام في اصول الاحكام) للآمدي لكونه من مراجع الدراسة في (المعهد العالي للقضاء) وانفاد ماطبع منه قبل ذلك سألني طلاب المعهد ان اكتب عليه كلمات فاستجبت لطلبهم تحقيقاً لرغبتهم، واداءا لبعض الواجب علي، ولم احاول ان اقف من الكتاب موقف الشارح ، فالكتاب واضح العبارة ، عالي الاسلوب بسط مؤلفه القول فيه، وارخى لقلمه العنان في بيان معانيه ، فهو غني بوضوحه عن الشراح ، بل من اراد ذلك منه احتقر عبارة نفسه الى جانب عبارة الآمدي .

لذا اقتصرت على نقد دليل، او التنبيه على خطأ في راي، اوتأويل لنص، او بيان ضعف حديث ، او تصحيح لتحريف في الاصول التي طبع عليها قدر الطاقة مع الايجاز ، ولم أستقص في ذلك لضيق وقتي ، وضعف قوتي ، وطول الكتاب ، وحرص الطابع على اخراج الكتاب بسرعة ،

وقد اكتفي عن تفصيل القول او بيان الخطأ في البحث باشارة الى مراجع معتمدة في نظري. والله اسال ان يلهمني الرشد والصواب فانه سبحانه الهادي الى سواء السبيل.

وفيما يلي ترجمة للمؤلف أحببت ان أقدمها بين يدى الكتاب وتعليقاتي عليه .

ترجمة السيف الآمدي

من الميزان للذهبي ، ولسان الميزان لابن حجر ، والبداية لابن كثير ، والوفيات لابن خلكان ، والطبقات لابن السبكي ، مع بعض تصرف .

هو ابو الحسن علي بن ابى علي محمد بن سالم التغلبي الآمدي. ولد بآمد « بلدة بديار بكر» عام ٥٥١هـ وقدم بغداد وتعلم وتفقه على مذهب الامام احمد بن حنبل وحفظ كتاب الهداية لأبي الخطاب ، ثم صار شافعياً ، واشتغل بعلم الخلاف وتفنن في علم النظر، ويقال انه حفظ الوسيط لأبي حامد الغزالي. ويذكر عن ابن عبدالسلام انه قال ماعلمت قواعد البحث الا من السيف الآمدي ، وما سمعت احدا يلقي الدرس احسن منه ، وكان اذا غير لفظة من الوسيط كان اللفظ الذى يأتي به اقرب الى المعنى؛ قال ولو ورد على الاسلام من يشكك فيه من المتزندقة لتعين الآمدي لمناظرته .

وذكر ابن خلكان أنه لما انتقل الى الشام اشتغل بالعلوم العقلية ثم انتقل الى مصر وتصدر بالجامع الظافري ، وانتشرت فضائله فحسده اقوام فسعوا به وكتبوا خطوطهم باتهامه بمذهب الأوائل والتعطيل والانحلال وطلبوا من بعضهم ان يوافقهم فكتب

حسدوا الفتى اذلم ينالوا سعيه فالقوم اعداء له وخصوم

فانتقل الآمدي الى حماة وصنف بها التصانيف ؛ ثم انتقل الى دمشق ، ودرس بالعزيزية ثم عزله الاشرف لاشتغاله بالمنطق وعلوم الفلسفة.

وذكر الذهبي في الميزان انه صح عن الآمدي انه كان تاركاً للصلاة اهـ .

ويظهر ان الذهبي استند في ذلك الى مانقله في كتابه تاريخ الاسلام عن شيخه القاضي تقي الدين سليمان بن حمزة ابي الفضل المقدسي حكاية عن الشيخ شمس الدين ابن ابي عمر قال كنا نتردد على السيف الآمدي ، فشككنا هل يصلي

فتركناه حتى نام ، وعلمنا على رجله بالحبر فبقيت العلامة نحو يومين مكانها ،

أقول قد يبقى الحبر أياما على العضو مع تتابع الوضوء والغسل وخاصة عضو من لا يرى التدليك فرضا في الطهارة بل يكتفي باسالة الماء في غسله ووضوئه ، ولا أدري كيف سكت من كان يتردد عليه لطلب العلم عن الانكار عليه أو النصح له أو الحديث معه في الصلاة ان كان ماذكروا دليلا عندهم على تركه للصلاة ؟ وعلى كل حال فالاصل البراءة حتى يثبت الناقل .

وقال ابن كثير في البداية : كان حنبلي المذهب كثير البكاء رقيق القلب ، وقد تكلموا فيه باشياء الله اعلم بصحتها ، والذي يغلب على الظن انه ليس لغالبها صحة . وقد كانت ملوك بني ايوب كالمعظم والكامل يكرمونه ، وان كانوا لا يحبونه كثيرا ، وقد فوض اليه المعظم التدريس بالعزيزية فلما ولي الاشرف عزله لاشتغاله بالمنطق وعلوم الاوائل ، فلزم بيته حتى توفي في صفر سنة ٦٣١هـ عن ثمانين سنة انتهى ، وقد برأه ابن كثير مما رمي به في الجملة فأنصفه من خصومه وانصف خصومه منه .

اقول ان الآمدي درس الفلسفة بأقسامها المختلفة وتوغل فيها وتشبعت بها روحه حتى ظهر اثر ذلك في تأليفه . ومن قرأ كتبه وخاصة ما الفه في علم الكلام واصول الفقه يتبين له ماذكرت ، كما يتبين له منها انه كان قوي المعارضة كثير الجدل واسع الخيال كثير التشقيقات في تفصيل المسائل ، والترديد والسبر والتقسيم في الادلة الى درجة قد تنتهي بالقاريء احياناً الى الحيرة .

فمن كره من الولاة والعلماء منطق اليونان والخوض في سائر علوم الفلسفة وخاصة ما يتعلق منها بالالهيات ، وكره كثرة الجدل والاسترسال في الخيال ، والاكثار من تأويل النصوص ، وذكر الاحتمالات خشية ما تفضي اليه من الحيرة والمتاهات مع قلة الجدوى منها تارة ، وعدم الفائدة احيانا كالاشرف والذهبي كره الآمدي دينا . وانكر عليه ما رآه منكرا ، وقد يجد في كتبه ومسلكه في تأليفها مايؤيد رأيه فيه ويدعو الى النيل منه .

ومن لم يكره ذلك ولكنه ضاق ذرعا بالآمدي لعجزه عن ان يصل الى ما وصل اليه من التبحر في العلوم، وقوة عارضته وحضور بديهته في الجدل والمناظرة، وحسن اسلوبه، وبارع بيانه، في التدريس وصناعة التأليف حسده، حيث لم يؤت مثل ما أوتي في نظره. كما ذكره ابن خلكان عن بعض العلماء في سبب خروجه عن مصر مستخفيا .

ومن لم يرتأسا بدراسة المنطق وسائر علوم الفلسفة وألف التأويل للنصوص وكثرة الفروض والاحتمالات دراسة ومناظرة وتأليفا رفع من شأن الآمدي وعنى بالذب عنه وانهال بالملامة على من حط من قدره ، او اتهمه في دينه ، اوطعن في تأليفه كابن السبكي حيث عاب الذهبي في انتقاصه الآمدي.

وقصارى القول ان العلماء لهم منـــازع شتى ومشـارب متباينة، فمن اتفقت نزعاتهم تحابوا وتناصروا واثنى بعضهم على بعض خيرا ، ومن اختلفت افكارهم ووجهات نظرهم تناحروا وتراموا بالنبال الا من رحم الله.

واسعدهم بالحق من كانت نزعته الى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ووسعه ما وسع السلف مع رعاية ماثبت من مقاصـد الشريعة باستقراء نصوصها، فكلما كان العالم ارعى لذلك والزم له كان اقوم طريقا واهدى سبيلا ؛ والمعصوم من عصمه الله، وكل احد يؤخذ من قوله ويترك الا رسـول الله ﷺ ؛ وكل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون. وما الا مدي الا عالم من علماء البشر يخطيء ويصيب ، فلننتفع بالصواب من قوله ؛ ولنرد عليه خطأه ، ولنستغفر الله له ، وليكن شأننا معه كشأ ننا مع غيره من علماء المسلمين ، وليكن شعارنا مع الجميع .

(ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان . ولاتجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رءوف رحيم) .

عبد الرزاق عفيفي